

الخطاب الطائفي في وسائل الإعلام العراقية

Sectarian discourse in the Iraqi media)

ط.د خرفية جودي* أ.د سامية جفال

1- مخبر الدراسات النفسية والاجتماعية جامعة، محمد خيضر بسكرة(الجزائر)،

Kherfia.djoudu@univ-biskra.dz

2- مخبر الدراسات النفسية والاجتماعية جامعة، محمد خيضر بسكرة(الجزائر)،

samia.djeffal@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2020/04/27 تاريخ القبول: 2020/07/15

الملخص:

بعد سقوط نظام صدام حسين واحتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق، احتدم الصراع الطائفي بين السنة والشيعة والأكراد، وسعت كل جبهة مذهبية لتوظيف مختلف الأدوات الممكنة لإعلاء وتقوية طائفها وسلطتها الدينية واستجلاء تفوقها المذهبي والعرق في العراق وبسط نفوذها العقدي، وبنخرط الإعلام بشقيه التقليدي والجديد في توليفة مشهدة للصراع والعنف الطائفي والمذهبي المستعر في العراق، ليصبح له امتدادا في الفضاء الإعلامي الواقعي والافتراضي ويعكس في الوقت ذاته هشاشة النظام الاجتماعي والأخلاقي للبيئة الحاضنة لهذا النوع من الصراعات، ويوصف الخطاب المقدم في بعض وسائل الإعلام بأنه خطاب مخصص قائم على مبدأ التعصب الدوغمائي وفكرة واستعلاء الذات وإقصاء الآخر الداخلي أو الخارجي من خلال توظيف الذاكرة الدينية. لذا فهذه الدراسة جاءت لتحاول تقديم قراءة نقدية للمشهد الإعلامي في العراق من خلال تحليل بنية الخطاب الطائفي وتحديد حدوده ومقوماته ومحاولة استجلاء تمثله الهوياتي والديني، ورصد تداعياته وتحديد انعكاس السياق الاجتماعي والسياسي الراهن والبحث في مرجعياته الحضارية والعقدية والجيوية-سياسية التي انعكست في عملية صناعة محتوى الخطاب الطائفي. الكلمات المفتاحية: الخطاب الطائفي، وسائل الإعلام، العربية، الحالة العراقية، دراسة نقدية.

Abstract:

After the fall of Saddam Hussein's regime and the American occupation of Iraq, the sectarian conflict between Sunnis, Shiites and Kurds broke out, thus every sectarian front tried to use various possible tools to raise and reinforce its sect and its religious authority to clarify

* ط.د خرفية جودي، المؤلف المرسل

its sectarian and ethnic superiority in Iraq and extend its ideological influence. Both ancient and modern sides of the media are parts in a scenic synthesis of the sectarian violence raging in Iraq, becoming more extended in real and virtual media space which shows at the same time the fragility of the social and moral system environment of such a type of conflicts. The speech on the media is regarded as specific based on the fanatic dogmatic principle, the idea of self-sufficiency and the exclusion of internal or external others through using the religious memory. Therefore, this study came to try to provide a critical reading of the media landscape in Iraq by analysing the structure of the sectarian discourse, clarifying its boundaries and components, trying to clarify its religious identity, monitoring its implications and determining the reflection of the current social and political context and looking for its cultural, sectarian and geo-political references that were reflected in the process of making the content of discourse Sectarianism.

Keywords: Sectarian discourse, the media, the Arab, the Iraqi case, a critical study.

مقدمة:

يشكل الإعلام بمختلف وسائطه في المجتمع الحدائي وما بعد الحدائي منظومة عسكرية وسياسية وثقافية تؤدي أدوار مختلفة لصالح جهات معينة بوصفه قوة ناعمة له سلطته وقدرته على التغلغل في مختلف مسارات المجتمع وهي الصياغة التي رفضتها مدرسة فرانكفورت والتي جعلت من وسائل الاعلام مجرد أداة في يد ملاكها، وعلى الصعيد العربي يتقاطع الإعلام بتاريخه وهويته العربية، فهو يحمل هذه التمايزات الثقافية والاجتماعية ويعمل على تقديمها ضمن أطر إعلامية متوازية وأحيانا متصارعة شأنها في ذلك شأن الصعيد السياسي والاقتصادي فتهي النهاية يشكل الخطاب الإعلامي مرآة عاكسة للمشهد السياسي والاقتصادي القائم في المنطقة العربية، وهي تفرض حملتها الإيديولوجية والهوياتية على الإعلام العربي الذي يندرج ضمن السياق الحضاري القائم في المنطقة لتشكل أحد أبرز ملامحه الأساسية.

وينعكس التاريخ الصدامي للمنطقة العربية القائم على ثنائية الصراعات الداخلية والخارجية، إذ ترتبط الصراعات الخارجية ببدايات التشكيل الحضاري الهوياتي للمنطقة العربية لما تحوزه من اعتبارات تاريخية وحضارية وعقدية تمتد على مساحة العمق التاريخي للإنسانية، وصولاً إلى قيام الحركات التحريرية وما بعد الاستعمارية، فيما يرتبط الصراع الداخلي بالصدمات التي عرفتها الجبهات السياسية والدينية للمنطقة والتي تلبّست في كليتها بالسياق الديني والمذهبي للمنطقة واتخذت من الدين مسوغ لها، ما أفضى بها إلى دوامة من العنف الطائفي والمذهبي شمل مناطق عدة أبرزها العراق.

تطرح إشكالية الصراع الطائفي في العراق عدد من القضايا، أبرزها آليات توظيف وسائل الإعلام للورقة الطائفية ومدى استغلالها في الفضاء الإعلامي وامتداد الصراع المذهبي إليها، وعلى هذا يفضي الصراع الطائفي إعلامياً في العراق تداعيات تحولت بفعل عوامل عدة داخلية وخارجية إلى آثار وخيمة على بنية المجتمع العراقي، وبالنظر إلى فسيفساء المجتمع العراقي المكون من عدد من الطوائف العراقية التي افضت شكلاً إلى حالة تنوع وانعكست إعلامياً إلى خلاف مذهبي وديني سرعان ما تحول إلى صراع ضمن الفضاء الإعلامي. لذا فهذه الدراسة تبحث في اشكالية: ما هي أدوار وسائل الإعلام العراقية في تقديم الخطاب الطائفي؟

9- الطائفية بين المفهوم والأبعاد.

تتحدد الطائفية كظاهرة اجتماعية تترافق ضمن المجتمعات الموزائكية التي تحمل في بنيتها الاجتماعية والثقافية والدينية طوائف مختلفة، من خلال عدد من المحددات الدلالية والاجتماعية، فضلاً على أنها تحمل أطر معينة تسمح بتباينها الثقافي والديني والإعلامي من خلال وسائل الإعلام التي تحوي هذه الظاهرة في رسالتها الإعلامية أياً كان شكل الوسيلة الإعلامية.

1.1. في مفهوم الطائفية:

يحظى مصطلح الطائفية بجدل واسع ومتباين وهذا الأمر راجع إلى ضبابية واتساع المصطلح، وتواجده ضمن تقاطعات سياقية متسعة الحقول ومتجذرة الدلالة في إطار ميادين المعارف الإنسانية والاجتماعية.

فعلى المستوى اللغوي يرجع نسب الطائفية إلى المصدر الصناعي "طائفة" وهي الجماعة من الناس، فيما تتشكل الطائفية من المادة المعجمية ط. و. ف والتي تحيل إلى معان الطواف والإحاطة بالشيء والالتفاف عليه (ابن منظور. 1997. ص222).

أما على المستوى الاصطلاحي تحيل كلمة الطائفية إلى " الطائفة" التي يمكن حصر معناها في "الجماعة" ذات الهوية الدينية أو المذهبية والتي غالبا ما توفر للفرد من جراء انتمائه لها ضمان الحقوق مقابل التنازل عن فرديته لها (مشعان ربيع، ص 118 وقد عرفت الطائفة بأنها " التنظيم الاجتماعي الذي تسلكه أو تعتمده جماعة دينية مما يحدد هويتها وولاءاتها والقوى الفاعلة فيها كرجال الدين بالمقارنة مع جماعة طائفية أخرى موجودة في المجتمع نفسه" (بركات. 2000. ص 437).

ويعرفها بيتر أل. بيرجر Peter L. Berger بأنها شكل من أشكال الرابطة الدينية بلا منازع وإن الطائفة هي ذات الشكل الذي يظهر نتيجة التأثير المباشر للدين (محمد صالح، 2016، ص 34)، فالطائفية بوصفها أيديولوجيا حديثة تنتج طوائف من نوع جديد، وفي مرحلة هيمنة الثقافة الدينية تنقسم الجماعات اجتماعيا وسياسيا تبعا لانقسامها عقديا، على خلفية الموقف من تأويل النصوص وفي ممارسة الطقوس وهنا يتحول المذهب إلى هوية دينية، وفي حال انقسام الجماعة إلى خلفيات لا علاقة لها بالدين، لكن الانقسام يبرز بالخلاف العقدي، ويتحول الانقسام إلى مذهب، ويتوافر ظروف تاريخية محددة يتحول إلى طوائف دينية، أو جماعات اعتقادية أو مقالة مختلفة عن مقالات الجماعات أو الطوائف الأخرى، وقد يمتد ليتحول المذهب إلى كيان اجتماعي، وإذا كانت الطائفة قد قامت في

الماضي على مستوى محلي، فإنها تتحول إلى طائفية في الحداثة، بعد تطييفها سياسيا في خضم الصراع مع الهويات الأخرى في عصرنا الذي شهد نشأة أفراد ذي انتماءات متعددة ووعي اجتماعي قابل لرفع هوية واحدة فوقها جميعا وإخضاع الهويات الأخرى لها (أبو حامد. 2019. ص 161). ويؤكد برهان غليون أن الطائفية تنتهي إلى ميدان السياسة لا إلى ميدان العقيدة أو الدين، فهي تشكل سوقا موازية للسياسة أكثر مما تعكس إرادة تعميم مبادئ أو مذاهب دينية لجماعة خاصة، وبالتالي تصبح الطائفية تعبير عن مجموعة من الظواهر التي تستخدم العصبية الطبيعية كالدين والاثنية والزبائنية المرتبطة بظاهرة المحسوبية أو المافيا في سبيل الالتفاف إلى قانون السياسة العمومية أو تحييده (غليون. 2007). لقد اعتبر العديد من الباحثين أمثال برهان غليون وعزمي بشارة وحسام كصاي الطائفية بأنها "التوظيف السياسي للدين" وبإخضاع الدين للسياسة يصبح من العسير إيجاد منافذ لحل الصراعات التي تتخذ من الاختلافات المذهبية والعقدية مبررا وشكلا لها، وهو ما يجعل الوصول إلى حلول توافقية يصل إلى طريق مسدود، وبهذا يشتد الصرع المذهبي ليصبح أكثر امتداداً وأشد عمقا في التاريخ.

وعلى ذلك يرى سعيد السمرائي أن الطائفية المذهبية أخطر أنواع الطائفية لأنها تقوم على تراكمات تاريخية ارتبطت بالسياسة والقبيلة، واتخذت لها طابعا قدسيا فجعلت من صراعها مع بقية الطوائف والجماعات صراعا عقديا ومصيريا في أغلب الأحيان، وعلى هذا الأساس فالطائفية تنشئة تقوم على الضغينة والنفاق تجاه الطرف الآخر، فهي شعور السني بالضغينة تجاه الشيعي، وشعور الشيعي بالضغينة تجاه السني، وهذا كله بلا سبب واضح، بل نتيجة شحن المشاعر العاطفية بالنفاق ما يجعل من الخطاب الطائفي خطابا مزدوجا ظاهره يخالف باطنه، وهذا يدفعه إلى تزيف الحقائق وتحريف التاريخ وابتداع الكذب (السمرائي. 1993. ص 48).

ويؤفق فالج عبد الجبار بين عدد من مفاهيم الطائفية، من خلال تحديده لأربعة ركائز وهي (مشعان ربيع. ص 120):

- تعيين الهوية الدينية أو الهوية المذهبية على أساس الجماعة أو الطائفة وليس على أساس هوية الأمة.
- تسييس هذه الهوية كوحدة للفعل الجمعي كبديل عن الهويات الاجتماعية أو الهويات الأيدولوجية سواء بإزاء الجماعات الأخرى المغيرة أو بإزاء الدولة.
- إن الهوية الدينية الجزئية تنشط بتأثير التنظيمات الاجتماعية أو هي تشطر هذه التنظيمات.
- إن الجماعات الجزئية سواء قامت على انقسام داخل الدين الواحد أو تعدد الأديان أو تعدد الإثنيات ذات المذاهب أو الدين المختلف، فإنها ليست كيانات أو بنية ثابتة.

فالتائفية إجمالاً تكاد تكون أبعد من مجرد خطاب ديني أو قراءة خاصة لفهم النص المقدس، لأن الفرد مهما كان موقفه من الدين أو درجة التزامه بطوقسه أو حتى معرفته بتفاصيل عقيدة طائفته، يجد الملجأ في طائفته الخاصة في ظل غياب الدولة المركزية وتصاعد حالة جدل صراعية بين الطوائف تقوم على رفض الآخر ومحاولة استئصاله، هذا الموقف الإقصائي من الآخر الطائفي يستند على أساس التزام تسليمي عقيدي قائم على أساس تمايز هويته ومسوغ وجوده مع الآخر، وكأي خلاف ذي شكل ديني يتعلق بالمقدس فهو خلاف صراعي جذري يسهل استدراجه على ممارسة العنف ضد الآخر (الماز. 2007).

2.1. أسس الخطاب الطائفي :

يشكل السياق التاريخي والاجتماعي والثقافي الذي عايشه هذا الخطاب في محصلته النهائية الصورة الحالية للخطاب وساهم في تحديد حملته الأيدولوجية،

إذ يشكل البناء الهوياتي أحد أبرز أسباب التأزم الطائفي في المجتمعات الإسلامية على نحو مخصوص، فالتاريخ الإسلامي المشحون بالصراعات المحتدمة بين أطراف عدة داخليا وخارجيا كان منطلقها وفاة محمد صلى الله عليه وسلم والبحث عن خليفة المسلمين وصولا إلى موجات التغيير العربي التي عرفته بلدان كسوريا والعراق والسودان واليمن، وصراع حركات الإسلام السياسي بحثا عن السلطة، على جانب آخر أدى انزياح الثقافة العربية الإسلامية عن مفاهيم الأصالة وتعرضها لتشوهات ومغالطات أدت إلى قيام ترسبات فكرية إسلامية وراдикаلية قائمة على التعصب والغلو وإنكار الآخر وإقصائه. خارجيا تم استغلال الورقة الطائفية من قبل قوى الاستعمار والاحتلال، فسقوط بغداد في يد الاحتلال الأمريكي ساهم في تأزيم المشكلة الطائفية، فقد عمدت الحكومة الأمريكية على تأسيس برلمان عراقي قائم على مبدأ المحاصصة الطائفية لا على الهوية العراقية، وهنا تكون الهوية الطائفية سابقة على الوطنية والقومية.

لقد وفرت عوامل عدة صعود التجيش الطائفي في العراق بعد 2003 فانفجرت الصراعات واتخذ التنافس الحزبي شكلا طائفيا بين الزعامات التقليدية في العراق، وفتحت الصياغة السياسية من الاحتلال للواقع العراقي ولغة المعارضة العراقية لنظام البعث، الباب لتقديم قراءات طائفية لماضي وتاريخ العراق وصلت لحد التلاعب والتزوير (أبو حامد. 2019. ص 171). لقد وفر هذا المناخ الطائفي المشحون بيئة حاضنة ساهم في تحويل الصراع السياسي إلى صراع اجتماعي احتضنته الحشود الشعبية في العراق وساهم في تعميق الصدع الطائفي والمذهبي.

يذهب عزمي بشارة إلى ضرورة قراءة التاريخ العراقي بحيث يشكل "الحديث عن تمييز طائفي منظوماتي أو سياساتي هو قراءة مفروضة على التاريخ بأثر رجعي" فالصراع الصفوي العثماني أحد أهم عناصر تشكيل الطوائف في العراق، فيما لم يكن العنف الطائفي في العراق معزولا عن عوامل إقليمية وخارجية أبرزها قيام

الثورة الإسلامية في إيران سنة 1979، التي وفرت غطاء حاميا لطائفة الشيعة في العراق، ولقد تعاملت القوى الخارجية مع الحركات الطائفية الداخلية بالاعتماد على المرجعية الدينية في واجهتها السياسية، ما وجه العامل الخارجي إلى مثل هذه المقاربة، فالهوية الجماعية الطائفية تتعزز حين تعتمدها قوى خارجية مهمة وفاعل في السياسة الداخلية تعتمدها كإطار ومرجعية في مقاربة الأفراد، أما إذا تبنت الدولة نفسها هذه المقاربة في التعامل مع مواطنيها وقامت بمأسستها، فإن التخلص من الطائفية السياسية يصبح صعبا (بشارة. 2018. ص 598). ولقد انعكست حالة التآزم السياسي والديني على وسائل الإعلام فعمدت هي الأخرى على تبني توجهات ايديولوجية ذات حمولة طائفية لتتخبط في صدامات ذات طابعية إعلامية وتتخذ من السياق العام مبررا لتواجدها ضمن مسارات الشحن الطائفي على امتداد قنواته وتفرع وسائله.

3.1. الصدع الطائفي في العراق

من المعروف تاريخيا أن الانشطار السني-الشيوعي بدأ سياسيا خالصا رغم شكله الديني، حيث اتخذ أسلوب العنف في حروب الخلافة التي تتالت فصولها في موقعتين رئيسيتين: الأولى موقعة الجمل في عام 36هـ (656م)، والثانية موقعة صفين بين علي ومعاوية عام 37هـ (657م)، وبعد خمس وعشرين سنة حدث مجزرة أقل دموية ولكنها شكلت منعرجا حاسما في الصراع السني الشيوعي تمثلت الحادثة في واقعة كربلاء التي قتل فيها الحسين بن علي رضي الله عنه سنة 680م، فقد أخذت هذه الواقعة بعدا تأسيسا للمذهب الشيوعي نظرا لما تمخض عنه من شعور بالذنب (فيما بعد سيكون هناك طقس ديني شيعي يسمي بجلد الذات) والحاجة إلى التكفير لدى أهل الكوفة وذريتهم فيما بعد (طرابيشي. 2008. ص 12).

لقد أسهم الموروث التاريخي الدموي بين الطوائف الدينية في العراق في جعل العنف الطائفي الذي عاشته العراق ولا تزال عملية انتقامية وتشف واستعادة

للذاكرة الدموية، ومن الأمثلة التاريخية الشهيرة ما يرويّه محمد بن أحمد الذهبي أبو شمس الدين في كتابه "تاريخ الإسلام" عن واقعة استباحة الكرخ سنة 654هـ، والتي خلفت من وراءها غزو المغول لبغداد انتقاماً من الخليفة العباسي على حادثة الكرخ (شيحة. 2016. ص 16).

طبقاً لبيتر هارلنك وحامد ياسين أن وجهة النظر الشعبية للصراع الطائفي في العراق على أنه صراع على السلطة بين العرب السنة والشيعة (لومي. 2008. ص 5)، وبما أن جوهر الهوية الشيعية غير محدد ومعقد بشكل متزايد، والكثير من مصادر الصراع الطائفي الحالي تعود إلى بداية الإسلام وإلى الانشقاق الكبير إذ تم فصل الشيعة عن الإسلام السائد آنذاك، وفي البداية كانت المسألة سياسية وأصبحت في وقت لاحق مسألة تتعلق بالإيمان والمعتقد، إذ تم تقسيم المجتمعات السنية والشيعة لأسباب سياسية ومن ثم تفاقمت الفجوة بينهما عبر قرون من الحروب والاقتتال والقمع السني للشيعة. فالشيعة كانوا دائماً على هامش السلطة في الشرق الأوسط وكان لذلك أثره البالغ في العلاقة بين فرعي الإسلام وعبر عقود عديدة وساد ذلك الوضع على مر التاريخ مع استثناءات قليلة. لقد باتت الخاصية النموذجية لأتباع المذهب الشيعي وطموحهم هي فكرة إعادة كسب السلطة، فلقد ولد المذهب الشيعي أساساً كطرف في صراع على السلطة، ومن منظور تاريخي يبدو أن إزالة صدام حسين عن هرم النظام قد سمح للشيعة إلى العودة إلى الحكم في السلطة.

4.1. العنف الطائفي والهويات المذهبية:

إن محاولة فهم الطبيعة المعقدة للديناميكيات الطائفية في العراق تظل مشلولة بالمعتقدات الأيديولوجية والتحامل الطائفي ولا يزال الخطاب المتعلق بهذا الموضوع يميل إما إلى إنكار أهمية الهوية الطائفية أو الذهاب بالعراق إلى صراع طائفي مانوي يتخلل جميع جوانب المجتمع والدولة العراقية. فلقد أدى التمرد الذي

عرفته العراق بعد سقوط حزب البعث إلى صدام محترم لدعاة إعادة تشكيل العراق سياسيا بعد 2003، سرعان ما جعل العراق أداة تهديد طائفي لاستقرار منطقة الخليج برمتها، وهو الصراع الذي اتسع ليشمل الحركات المتطرفة من الجماعات السنية والمليشيات الشيعية وإلى جانبهم الجبهة الكردية، في سعى لتحقيق أهداف دينية وايدولوجية امتدت لتتجاوز الحدود السياسية والجغرافية للعراق (شيحة. 2016. ص 71).

لقد مثلت سنوات 2006-2007 جذوة هذا العنف وانتشاره عن طريق أشكال مختلفة من التفجيرات الانتحارية وعمليات القتل الجماعي التي استهدفت تجمعات سكنية ومدنية مثل الأسواق والأحياء السكنية في مناطق ذات غالبية سنية أو شيعية أو كردية، بهدف الانتقام أو التصفية أو التطهير الطائفي بناء على تعصب إيديولوجي مقبت، وفي ظل ضعف السلطة المركزية وفوضى ما بعد احتلال العراق انتشر عمليات التفجير الانتحارية بين السنة والشيعية وأسهمت الميلشيات المسلحة الطائفية في استعمار هذه الأزمة ودمويتها، ومن أهم التنظيمات المتهمه بتأجيج نار الفتنة الطائفية والمشاركة في تغول ظاهرة الطائفية (شيحة. 2016. ص 71):

- التيار الصدري وجيش المهدي: تيار شيعي يرأسهما مقتدى الصدر.
- المجلس الأعلى للثورة الإسلامية: وهو منظمة شيعية يتألف من فيلق بدر، منظمة 15 شعبان، حركة حزب الله، والنخب الإسلامية، وحركة بقية الله.
- عصائب أهل الحق: تيار شيعي انشق عن التيار الصدري يقوده قيس الخزعلي.
- قوة البشمركة: تيار كردي يعتبر القوة المشتركة للحزبين الكرديين في البلاد.
- دولة العراق الإسلامية: تشكلت من عدد من الجماعات السنية المختلفة التي تورطت في أعمال عنف طائفي في عدد من المدن العراقية.

- جيش أنصار السنة: تنشط في شمال العراق وتعتبر مجموعة كردية سلفية وهابية كانت تسمى سابقا بـ "أنصار الإسلام".
- تنظيم الدولة الإسلامية لبلاد الشام والعراق: والمعروف اختصارا بـ "داعش" يمارس أعمال عنف دموية، وينتهي للتيار السني المتطرف.

ثانيا: وسائل الإعلام العراقية وإدارة الصراع الطائفي:

لم ينأى الانقسام والافتتال الطائفي الذي عرفته العراق بعد سنة 2003 عن مجاله الإعلامي الذي عرف هو الآخر نفس حجم الافتتال والعنف الطائفي على الصعيد الإعلامي، فوسائل الإعلام شكلت أدوات في الحرب الطائفية القائمة بين الجماعات المذهبية المتصارعة في العراق، وعلى الرغم من تنوع قطاع الإعلام الذي عرف بعد 2003 انتعاشا في ظهور الكثير من المؤسسات الإعلامية التي اشتغلت هي الأخرى على مسألة الاحتقان الطائفي وإذكاء لهيب الحرب الطائفية الجارية.

1.2. مورفولوجيا الإعلام المؤدلج* وصدام الطوائف الدينية في العراق:

تشكل الفضائيات الدينية أبرز ساحات الاقتتال المذهبي في العراق، فلقد جنح الخطاب الطائفي في وسائل الاعلام العراقية إلى توظيف كل دواعي الاقتتال المذهبي وصياغة كل مبررات اللاتسامح وإقصاء الآخر المختلف، فلا مبالغة في قول إن وسائل إعلام محددة كانت تشتغل على إذكاء الصراع القائم في العراق متخذة من المنابر والفتاوي الدينية وسيلة وسبيل لذلك (الكثير من الدراسات اعتمدت على تقديم هذا الطرح في بحثها للمسألة الطائفية في الشرق الأوسط من أمثال دراسات عزمي بشارة، برهان غليون، جنيف عبدو، ألكساندرا سيغل، نصر الدين لعياضي وغيرهم). فوسائل الإعلام العرقية بشقها الكلاسيكي والجديد تنتهج ضمن مسار

* الإعلام المؤدلج هو ذلك الإعلام المتشرب في منطلقاته وسياساته وتوجهاته بصبغة ثقافية تحسبه على الدوام بأراء واحكام مسبقة ومنحازة، من دون اعتبار للقيم الحقيقية، ومعطيات الواقع والتاريخ، فهو يرى الواقعة كما يريد ويشاء لا كما هي في الحقيقة، ينظر: عبد القادر تومي، الإعلام وأزمة الخطاب العولمي: قراءة نقدية في مرآة الإعلام المؤدلج.

ممارسة الفعل الدعائي، فهي وسائل دعائية بالدرجة الأولى تسعى لتمرير رسائله الخاصة والقائمة في المقام الأول على إعادة رسم خارطة سياسية تعتمد فيها على مرجعية مذهبية طائفية، فالدعاية السوداء للإعلام العرقي تقوم على فتاوى الدم والتحريض والكراهية والتحريم والتحليل واستباحة الآخر- السني/ الشيعي في المستوى الأول والكردي ثانيا، فالعداء التاريخي بين السنة والشيعية وتاريخ الصدام الدموي القائم على موروث من الإقصاء والاعتداءات والتطهير المذهبي توفر في محتوى وسائل الإعلام العراقية، وبشكل خاص في الفضائيات التي عرفت انتشارا كبيرا وعددا هائلا بعد سقوط نظام صدام حسين وبتشجيع من الاحتلال الأمريكي الذي اعتمد على مبدأ سياسي معروف "فرق تسد" (Abdo. 2015) فالعمل كان على وتيرة الاشتغال بالانقسام والشق الطائفي الذي كان موجودا في العراق ومحاولة تعميقه وتأزمه من خلال نشر خطابات الكراهية والتحريض والإقصاء والتمييز العنصري القائم على إعادة بعث الاختلافات المذهبية والدينية وإحيائها، لذا تزامنت زيادة وتيرة العنف الطائفي وأعمال التطهير العرقي والتفجيرات في المناطق المقدسة مع زيادة حدة خطابات الكراهية في وسائل الإعلام العراقية وتزايد انقسام خريطة الإعلام العراقية التي تلبست بالصراعات المذهبية.

لقد أصبحت الهوية الدينية والمذهبية سابقة على الوطنية والقومية في العراق، فالاحتلال الأمريكي في العراق ومن خلال توظيفه لوسائل إعلام عراقية الهوية، أصل فكرة صدام المذاهب الدينية وأعاد بعث الصراعات الدامية بين المذهبين السني والشيعي وعمل على إحياء الذاكرة الدينية التصادية بينهما.

ولا غرابة أن يصبح الإعلام سلاحا يستخدم في يد المتصارعين باسم الدين مثلما يستخدم في الصراع على السلطة، إذ يشكل الدين والسياسة والإعلام أحد أهم وأخطر مجالات التقاطع داخل النسق الاجتماعي والتي تنتج في محصلتها النهائية خطابا إعلاميا مفخخا وقابلا للانفجار يتماهي في شكله ومضمونه مع أيديولوجياته

السياسية وهويته الدينية والمذهبية ليصبح الإعلام بمختلف وسائله واستراتيجية قائما على التعقيم والتشويه والتزييف وإقصاء الآخر (الداخلي/ الخارجي) والتحريض على ممارسة كل أشكال العنف ضده مادام هذا الفعل مبررا عند "نحن". وتتشكل المورفولوجيا الإعلامية في العراق على تقاطعات كثيرة غارقة في القدم من حيث توظيف تاريخ طويل وحافل بالصدامات بامتداد حضاري قديم، وجغرافية سياسية تقع في منطقة نزاع داخلي وإقليمي، لتشكل صورة شبه حاسمة على صراع مذهبي باسم "الإسلام السياسي"، وتتموقع خريطة الإعلام العراقي على مجموعة كبيرة من وسائل الإعلام المتصادمة في كليتها، إذ تنعكس خريطة الأقليات الدينية والسياسية على هوية وتعدد وسائل الإعلام في العراق، فمنذ سقوط حزب البعث عرفت العراق انفتاح إعلامي غير مسبوق وتشكل الفضائيات الإعلامية أبرز منصات التي تميزت فيها الاختلافات الدينية والمذهبية بشكل لافت وانعكست بشكل مطرد عليها أكثر من باقي وسائل الإعلام الأخرى سواء المكتوبة أو السمعية، وقد سعى الاحتلال الأمريكي للعراق إلى فتح المجال الإعلامي كما السياسي أمام الاختلافات المذهبية (حصص الطائفية) لتصبح هذه الفضائيات الإعلامية منبرا للصدام السني الشيعي وبشكل بذلك إعلام مؤدلج قائم على زرع الفتنة والشحن الطائفي وتعميق الهوة بين المذاهب الدينية على اختلافها، وقد اعتمدت الفضائيات العراقية على استراتيجية العمل على وتر الحساسية الدينية القائمة منذ قرون عديدة في العراق، لتعيد للجمهور العراقي بشكل خاص مشهد صراع عرقي في مسرح حضاري، ليرتفع مستوى الشحن الطائفي الذي ترافق مع دعاوى التطهير المذهبي في العراق، ومنذ سقوط بغداد بدأت تنتشر الفضائيات العراقية التي توزعت على شقين أساسيين سني/ شيعي وثانوي متمثل في الأكراد، معتمدة على تمويل رجال الأعمال والسياسة، ومن ذلك قناة "الفرات" الفضائية التابعة للمجلس الأعلى الإسلامي برئاسة عمار الحكيم، وقناة "الغدير" الفضائية التابعة لميليشيا بدر برئاسة هادي العامري وقناة "بلادي"

الفضائية التابعة لتيار الإصلاح الوطني برئاسة إبراهيم الجعفري، وقناة "أفاق" الفضائية التابعة لحزب الدعوة الإسلامية برئاسة نوري المالكي، إضافة إلى قنوات "النعيم" التابعة لحزب الفضيلة، و"العهد" الناطقة باسم ميليشيا عصائب أهل الحق، و"النجباء" المملوكة من ميليشيا النجباء، التي تقاثل إلى جانب الرئيس السوري بشار الأسد، وقناة "الاتجاه" التابعة لكثائب حزب الله في العراق، وغيرها الكثير على الجانب الشيعي، والتي تقدّر بأكثر من 25 قناة فضائية.

أما على جانب الأحزاب السنيّة فتبدو الفضائيات أقلّ عددًا، إذ تعود قناة "الرافدين" لهيئة علماء المسلمين، وقناة "بغداد" التابعة للحزب الإسلامي، وهناك مجموعة من القنوات الأخرى المملوكة لرجل الأعمال العراقي خميس الخنجر أبرزها "الفلوجة" و"الشاهد"، فضلًا عن قناة "دجلة" التي تملكها حركة "الحل".

ولا يبدو مستغربًا أن تمارس هذه القنوات الفضائية إعلام مؤدج، عبر قلب فحوى الأحداث وتفريغها من محتواها وإلباسها محتوى طائفيًا محرض على العنف ومشجعًا العراقيين على الانزواء أكثر داخل هوياتهم الطائفية، فضلًا عن استضافة المتناحرين من السياسيين لتتحول الحوارات بينهم إلى جلسات صراخ وتبادل اتهامات بين الطوائف الدينية (<https://ultrasawt.com>)

وينتشر إلى جانب القنوات ذات المحتوى والبرامج السياسية، القنوات الإسلامية الشيعية البحتة التي تفرد ساعات البثّ لعرض الخطب الدينية لرجال الدين الذين يحترفون في تقديم مختلف أنواع الشتائم للمسلمين السنة من خلال تكفيرهم والحث على الانتقام لعلي والحسين والطعن في الخلفاء الراشدين وعائشة رضى الله عنهم، تبثّ بعض هذه القنوات من عواصم دول الخليج وبريطانيا مثل قناة "فدك" لصاحبها ياسر حبيب والتي توجه بثها للعراقيين والشيعية بشكل عام، مركز بثها من بريطانيا.

جدول رقم 1: يوضح توزيع بعض القنوات الفضائية حسب المحاصصة الطائفية الإعلامية في

العراق

وسائل إعلام كردية	وسائل إعلام سنية	وسائل إعلام شيعية
كردستان-كردستان- KNN - إن آر تي -روودار- عشتار (باللغة السريالية)- آشور) باللغة السريالية).	الرافدين - البغدادية الفلوجة - الشاهد- الحل الحدث- صلاح الدين - التغيير.	الفرات -آل البيت -العترة فدك -الغدیر -كربلاء- الزوراء.

المصدر: (ينظر: لعياضي. 2015)

2.2. التوظيف السياسي للدين واتجاهات الخطاب الطائفي.

لا تختلف عملية التوظيف السياسي للدين في عمليات التوظيف السياسي للبنى الاجتماعية الأخرى، وتنظيمات ما قبل الدولة، ولكنها أكثر تعقيداً وأوسع في مجالاتها المكانية والزمانية وتجاوز حدود الدولة الواحدة، خاصة مع ظهور التكوينات الطائفية والمذهبية في الدولة الواحدة التي تمتد إلى خارج الحدود، وقادرة على استقطاب الرأي العام وتوجيهه وفق المصالح السياسية للقوى الفاعلة فيها، فضلاً على أن البنية الدينية في أي تنظيم اجتماعي تأخذ بالانقسام عندما تظهر ملامح الاضطراب في الحياة الاجتماعية أياً كانت سياسية واقتصادية أو اجتماعية. تبعا لطبيعة الاتجاهات الدينية السائدة، وتبعاً لرؤى التي تشكل مرجعيات المواقف السياسية لعلماء الدين، الأمر الذي يؤدي إلى بذل الجهود لعملية التأسيس الشرعي لمظاهر الاختلاف والتناقض (<https://ultrasawt.com>)

غير أن عدد كبير من المثقفين السياسيين في المجتمع العربي مازالوا ينظرون إلى الحركات السياسية ذات الطابع الديني على أنها شكل من أشكال الإسلام السياسي

إن عملية إنتاج خطاب ديني حدائثي يقوم على تسويق الصراع الديني وتقديم المبررات السياسية في صبغتها الدينية لتأصيل الفعل الطائفي مهما كان حجمه ومنتهاه من تكفير وقتل وإبادة جماعية للأخر الداخلي بدعوى التطهير المذهبي

وسيادة التيار الديني الذي يمثل المدعى، وهو ما يتيح للخطاب الديني في وسائل الإعلام تقديم مختلف المسوغات والفتاوي التي تجعل من الممارسة السياسية التي تنتهج بعدها الطائفي فعل شرعياً يتخذ صفة الإلزامية والشرطية كركن من أركان الإسلام، وبالتالي تصبح مختلف العمليات السياسية تأخذ طابع الشرعية الدينية وباركها رجال الدين قبل السياسية (Abdo. 2015)، وهو ما يتم تأصيله إعلامياً بفعل التكرار ليصبح الفعل الطائفي الممارس مستساغاً ومقبولاً. وبالتالي يتم إعطاء الشرعية لمختلف الممارسات الطائفية الممكنة ضد الآخر (السنّي/ الشيعي) حسب منبر المخاطب الذي يعمل على آلية الحشد والشحن في الآن نفسه، وبالتالي تتكون نفوس مشحونة طائفيًا يتم حثها على التنفيس من خلال الممارسة التي تتجسد في أفعال إقصائية ضد الطائفة المختلف معها، وما يزيد من حدة خطاب الكراهية المتأصلة في هذا النوع من الممارسات المشحونة إعلامياً من قبل رجال الدين هو تفعيل الذاكرة الدينية من خلال سرد الفعل الإجرامي الممارس عليهم وهو ما يعمق ويوطد من رابطة الانتماء للطائفة أكثر من الوطنية أو القومية. كما يعمل من جانب آخر على الرفع من الروح الانتقامية والتغلب على المظلومية التي مورست عليهم في سياق تاريخي ضارب في القدم.

3.1. الميديا الجديدة والصراع الطائفي في العراق:

في أغسطس/ أوت من سنة 2013 أعرب مكتب حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة عن قلقه إزاء ما أسماه بالانتشار السريع لخطاب الكراهية عبر الحدود عن طريق شبكة الانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، وقد أعلنت نائبة المفوضية السامية لحقوق الإنسان فلافيا بانسيرى في كلمتها خلال افتتاح الدورة 83 للجنة العلمية المعنية بالقضاء على التمييز العنصري في جنيف " أن المشكلة تتفاقم بسبب عدم وجود تعريف مقبول عالمياً لما يشكل خطاب الكراهية" (زهرة. 2014. ص 148)، لقد سهلت وسائل التواصل الاجتماعي التعرض للناس فلا أحد يسلم من

التغريدات أو المنشورات المسيئة، ويزداد الأمر سوءاً في الاستخدام السلبي لوسائل الإعلام الجديد الممتد عبر الانترنت والذي يستخدم لبث شعور الكراهية ونبذ الآخر المختلف، فلقد منحت شبكة الأنترنت والفيديو والتويتر مساحة حرية واسعة جداً في التعبير عن الآراء والمواقف دون رقابة ودون تدخل، وهذا ما أدى إلى إشاعة خطاب الكراهية والتحريض على الآخر.

نشر الباحث الأيرلندي باتريك كوكبرن تقريراً حذر فيه من دوامة الكراهية التي يرى أنها أخذت بعداً منهجياً في العالم الإسلامي، وذكر في تقريره أن حملة الكراهية ضد الشيعة التي تنتهجها وتروج لها الأنظمة الملكية، وتشكل مواقع التواصل الاجتماعي وبشكل خاص تويتر ويوتيوب محركات لنشر الكراهية الطائفية وغالباً ما يقف رجال الدين وراء ذلك. يقدم كوكبرن مثالا على ذلك في محتوى قدمته إحدى الفضائيات لصور رجال دين من الشيعة واصفة إياهم بـ "أعوان الشيطان"، فيما يتساءل آخر في محطة أخرى "ماذا تنتظرون أيها السنة وأبناؤكم يساقون إلى المشانق في العراق - ألم تحن ساعة تحطيم الفؤاد؟". وحسب كوكبرن في إحدى خطب الداعية الكويتي نبيل العوضي الذي يكشف فيها عن مؤامرة تحاك ضد الكعبة المشرفة الهدف منها هدمها ويقول في هذا السياق في خطبة تم بثها عبر اليوتيوب "إنهم يقتلون الأئمة في العراق، إذ يثقبون رؤوسهم بالمناقب الكهريائية حتى الموت... ولا يعلمون أن الجهاد باق وأنه سيزرع الرعب في قلوبهم حتى ولو كانوا في واشنطن أو لندن أو موسكو." (<https://almanar.com>)

لا ينأى العالم الإسلامي والعربي وتحديداً المناطق التي تشهد صراعات سياسية مثل سوريا والعراق واليمن على توظيف شبكات التواصل الاجتماعي والمواقع الإلكترونية في نشر خطابات الكراهية والفكر المتطرف القائم على إقصاء الآخر الداخلي قبل الخارجي، إذ نجحت الحركات المتطرفة وعلى رأسها تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" في صناعة خطاب مشحون قائم على الكراهية والتطرف

والإقصاء، والعمل على الشحن من خلال توظيف الاستمالات العاطفية في نشر فكرة المظلومية والدفاع عن حقوق الطائفة المذهبية التي ينتمي إليها هذا الفكر السني أو الشيعي، فحركات الإسلام السياسي المتطرفة جعلت من شبكات التواصل الاجتماعي موطن للإسلام الراديكالي القائم على كل مفاهيم الإقصاء ونبذ الآخر ومحاربه وصولاً إلى الإفتاء بتكفيره وقتله واستباحة عرضه وأهله وماله، ولا يتوقف الشحن عبر هذه المنصات الإلكترونية عند هذا الحد فقط، بل يصل الأمر إلى استعراض هذا الفكر من خلال استعراض صور القتل والذبح والتدمير عبر تويتر وفيسبوك، وهو ما يصنع هالة من الرعب والخوف ويؤصل لمبدأ الرهبة "فأن تكون معي... أو ضدي فهذا مصيرك" فهو مبدأ قائم على إقصاء كل من يخالف المذهب أو العقيدة لا مكان فيه للحوار أو التسامح، تؤصله مواقع التواصل الاجتماعي التي تسهم في نشر فكر التطرف والإقصاء والتعصب والعنف والكرهية.

ولم تعد الصراعات العقدية في العراق محلية مغلقة، بل أصبحت ظاهرة عالمية من خلال فتح جبهات الصراع وتحويلها من مجالها الواقعي المحدود إلى فضاء افتراضي متسع قائم على محاربة المختلف والمتعارض في بعده الإقليمي والدولي، وبالتالي بات الصدام بين الجبهات السنية والشيعية العراقية صداماً ممتد ولا جغرافي، وأصبح توظيف وسائط الإعلام الجديد توظيفاً لا تحده رسالة إلى منطقة بعينها وإنما تعيد تشكيله الهوية القائمة على التمييز العنصري والعرق والديني، وهنا تتقاطع مختلف السياقات ليتشكل لنا مفهوم جديد قائم على الفضاء الافتراضي اللامتناهي واللامحدود، ويصبح خطاب الكراهية والتحريض الطائفي ممتداً وشاملاً ومتسعاً ويقصي في أبعاده الآخر أينما كان ومهما كانت لغته ومرجعياته.

الخاتمة:

يشكل العنف الطائفي أحد أهم الأزمات التي يعيشها العراق إلى جانب دول عدة في الشرق الأوسط ودول الخليج العربي، ولإن كانت الظاهرة تحظى بتاريخ طويل ارتبط بامتداد وجود الحضارة الإسلامية وتعاقبها عبر الزمن، إلا أن الظاهرة عرفت تأزماً أكثر بفعل عوامل عدة، فقد منحت الثورة الإيرانية 1979 للمذاهب الشيعية في العراق دعماً معنوياً واللوجستي بحثاً عن المنافذ التي تتيح للشيعية إمكانية الوصول إلى هرم السلطة في العراق، فيما شكلت لحظة سقوط بغداد علامة فارقة في تاريخ الصراع المذهبي ليس في العراق فقط بل تجاوز ذلك ليمتد إلى المنطقة العربية، فقد عمدت الحكومة الأمريكية على تأزيم العنف الطائفي من خلال تكريس مبدأ المحاصصة الطائفية في البرلمان العراقي، وهي الممارسة التي تؤصل مبدأ الهوية المذهبية وتسقط الهوية القومية أو الوطنية، وإلى جانب ذلك، نقل الصراع الطائفي من الميدان إلى المحطات الفضائية المختلفة التوجهات وإلى معظم وسائل الإعلام العراقية لتتخربط ضمن شبكات إعلامية أسهمت في صناعة خطابات الكراهية والتحريض الطائفي وفي سياق المحاصصة الطائفية الإعلامية كسياسية إعلامية، أصبح الإعلام الطائفي مؤدج يعمل ضمن هيكلية تتيح تقديم محتوى طائفي يؤجج من مشاعر الكراهية والتعصب الديني والمذهبي في العراق، وامتد هذا الخطاب إلى وسائط الإعلام الجديد، فشبكات التواصل الاجتماعي بتعددية منصاتها انخرطت كذلك في صناعة الكراهية الدينية والتحريض الطائفي مستغلة بذلك مختلف سماتها التي وفرتها تقنيات الجيل الثاني web 2.0 وتعتبر مسألة ضبط والحد من هذا النوع من الخطابات من أهم القضايا والرهانات التي تواجه المؤسسات الإعلامية العراقية، فالعودة إلى الدور المنوط بالإعلام في بث القضايا والأحداث وعرضها بعمقها الموضوعي وتقديم إعلام حقيقي يلامس مختلف فئات المجتمع وطوائفه بدون إقصاء، رهان يجعل من الإعلام الطائفي محل مسائلة قانونية وأخلاقية تتقاطع فيها الأخلاقيات المهنية مع الممارسات الإعلامية ضمن خط السياسة

التحريرية والانتماء المذهبي للمؤسسة الإعلامية، التي انتهجت مساراً للتحريض الطائفي وصناعة العنف المذهبي في العراق وخارجه.

المراجع والمصادر:

1. القرآن الكريم.
2. ابن منظور. (1997). لسان العرب. ط2. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
3. السمرائي. سعيد. (1993). الطائفية في العراق. دار الفجر. لندن.
4. بركات، حليم. (2000). المجتمع العربي في القرن العشرين. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.
5. جلال الدين. محمد صالح. (2016). الطائفية الدينية بواعثها – واقعها – مكافحتها. دار جامعة نايف للنشر. الرياض.
6. زهرة، وليد حسني. (2014). أني أكرهك، خطاب الكراهية في إعلام الربيع العربي، الأردن: مركز حماية وحرية الصحفيين.
7. طرايشي، جورج. (2008). هرطقات. 2. في العلمانية كإشكالية إسلامية – إسلامية، ط1. رابطة العقلايين العرب دار الساقى، لبنان.
8. أبو حامد، حسام، قراءة في عزمي بشارة. الطائفية في سياق تاريخي. مجلة عمران. 7/27. 2019.
9. بشارة، عزمي. (2018). الطائفية والطوائف المتخيلة. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. بيروت. الدوحة.
10. الحسيني. موسى. الطائفية في الوطن العربي. تعريفها وأسباب ظهورها. حلقة نقاش: الطائفية والمذهبية وأثارهما السياسية. مجلة المستقبل العربي. العدد 408. فيفري 2013.
11. سكاى لاین الدولية ترصد التحريض والكراهية في الشرق الأوسط. أبريل 2019.
12. شيحة، عبد المنعم. المواطنة الطائفية العراق من حلم المواطنة إلى المواطنة الطائفية. مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. 27 يوليو 2016 .
13. لعباضي، نصر الدين. الخطاب الطائفي في الفضائيات الدينية. كلفة الخطاب وتداعياته. مركز الجزيرة للدراسات. 2015.

14. فنار. حداد. العلاقات الطائفية والهوية السنية في العراق بعد الحرب الأهلية. السياسة الطائفية في منطقة الخليج. تقرير موجز رقم 7. مركز الدراسات الدولية والإقليمية كلية الشؤون الدولية بجامعة جورج تاون. قطر. 2015.
15. مشعان ربيع. هادي، أزمة العنف الطائفي في العراق بعد الاحتلال الأمريكي 2003، مجلة تكريت للعلوم السياسية، المجلد 3، العدد 9.
16. مازن. كم الماز. الطائفية وإشكالية التغيير الاجتماعي، الحوار المتمدن، العدد 1816، تم نشره بتاريخ: 2007 /02/04 متاح على الموقع <http://www.ahewar.org/debat/nr.asp>
17. ملاك محمود. تحريض عبر السوشل ميديا بأمر ملكي؟ متاح على موقع <http://archive.almanar.com.lb/article.php?id=747261> تم زيارته يوم 21/08/2019.
18. Abdo, Geneive, (2015). Salafists and Sectarianism Twitter and communal Conflict in The Middle East, center for Middle East Policy Brookings, in the link: www.brookings.edu